خطبة صلاة الجمعة 9/ 1/ 2025 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(قيم إنسانية – العمل)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161].

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» وفي رواية البزار: «مَكَارِمِ الأخلاق».

أيها الإخوة:

هذه مجموعة من الخطب تتحدث عن قيم إنسانية.

القيم هي المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها الناس، ويجعلونها ميزانًا يزنون به أقوالهم وأعمالهم.

وإنما سميت القيم قيماً لأن بها قِوامَ الإنسان والحياةِ الكريمة.

وإنا سميت القيم قيماً لأن الأقوال والأفعال والأشياء بها تُقَوَّم وتوزن.

وإنما سميت القيم قيماً لأنها مستقيمة لا تنحرف ومنه قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي مستقيماً.

وإنما سميت القيم قيماً لأنها الحارسة للفطرة والراعية لإنسانية الإنسان ومنه قولنا قَيِّم المسجد: أي راعيه وحارسه.

فالقيم بها تقوم الحياة الكريمة، وبها تُقَوَّمُ الأقوال والأفعال وتوزن، وهي الحارسة للفطرة الراعية لإنسانية الإنسان، وهي المستقيمة التي لا تنحرف.

ونحن بعد أن أكرمنا الله تعالى بالفتح أحوج ما نكون لتعزيز القيمِ النبيلة، وهذه مجموعة من الخطب تعرض كل منها لقيمةٍ إنسانيةٍ، لا تظهر إنسانية الإنسان إلا بها، ولا تستقيم علاقاتنا الاجتماعية إلا بها، ولا تقوم لنا قائمة إلا بها.

تحدثت خطب ماضية عن الاحترام وعن العلم وحديث اليوم عن العمل –قيمةٍ من القيم العليا التي بها قوام الدنيا والدين–.

عنوان خطبة اليوم: قيم إنسانية

— العمل–

أيها الإخوة:

إن مما يتميز به الإنسان عن أخيه الإنسان وعن سواه من المخلوقات عملَه وفاعليتَه وإنتاجَه، ويُعَدُّ العملُ من أخطر قضايا الإسلام، ومن أوسع مواده غنى في مصدري التشريع.

ورد ذكر العمل واشتقاقاتِه في القرآن الكريم مئات المرات، وحوى القرآن الكريم آلاف الأفعال سواء كانت فعلَ أمر أو فعلاً ماضياً أو مضارعاً، مبنيةً للمعلوم أو المجهول، فضلاً عن أسماء الأفعال.

في القرآن الكريم حديث عن صناعة الرماح، والبيوت، والفُلك، والصيد البحري والبري، والمحاريب، والدروع، وعرائش النخل والأعناب، وبناء المدن، والسدود المائية والتحصينية، والأثاث وغيرِها...

وفي آيات القرآن الكريم حديث عن معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس، وعن مشتقاتها وخلائطها، وحديث عن الخياطة، والحدادة، والبناء، والنجارة، والغزل، والفلاحة، والصباغة، وفيه إشارات عن الوراقة، والوزانة، وصناعات البحار، والفضاء، والصناعات الفنية المشروعة والممنوعة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:71-73].

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:37].

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:80].

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ [الحجر:82].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:94].

وفي كل هذا دليل على أهمية العمل والحركة والفعل والإنتاج في الإســـلام، وحضٌّ وترغيب لأبنائه ألا يتوقفوا عن العمل النافع.

حدَّث رسـول الله ﷺ أصـحابه كثيراً عن العمل، ودفعهم إليه، فكان يقول لهم –كما روى البخاري–: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

«لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاس أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ».

وأخرج البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ».

وأخرج الإمام أحمد قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ».

وعمل النَّبي ﷺ في التجارة، وعمل في رعي الغنم، وعمل في بناء المســـجد، وعمل في حفر الخندق، وعمل في مهنة عياله.

وحدَّث ابن عباس رضـــي الله عنهما رجلاً قال: "أحدثك عن الأنبياء المذكورين في كتاب الله، أحدثك عن آدم، أنه كان عبداً حراثاً، وأحدثك عن نوح، أنه كان عبداً نجاراً، وأحدثك عن إدريس، أنه كان عبداً خياطاً، وأحدثك عن داود، أنه كان عبداً زراداً، وأحدثك عن موســـى أنه كان عبداً راعياً، وأحدثك عن إبراهيم، أنه كان عبدا زراعاً، وأحدثك عن صـالح، أنه كان عبداً تاجراً، .... وأحدثك عن النَّبي المصـطفى ﷺ، أنه كان يرعى غنم أهل بيته بأجياد" [الحاكم].

وتروي كتب التراجم والسير: "كان أبو بكر بزازاً –يعني تاجر قماش–، وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل، وكان عمرو بن العاص جزاراً، وكان أبو ســـفيان تاجر زيت وجلود، وكان عثمان بن عفان تاجراً، وكان علي بن أبي طالب عاملاً... رضي الله عنهم أجمعين".

وعمل أبو حنيفة –صـــاحب المذهب – في تجارة الخز، وعمل مالك بن دينار في الوراقة –كان يكتب الكتب بيده ويبيعها–، وعمل أيوب السختياني في بيع الجلود، وعمل محمَّد بن سيرين بزازاً –تاجر قماش– ...

ذَكَرَت كتب التاريخ والحضـارة الإسـلامية أن المسـلمين أدخلوا أول شـجرة نخيل إلى أوربا، وأدخلوا إليها أيضـــاً زراعة القطن، وقصـــب الســـكر، والفســـتق الحلبي، وتذكر معاجم اللغة كلمات عربية زراعية

دخلت إلى اللغات الأوربية، ولازالت تستعمل إلى اليوم، أصلها عربي، لكن الأوربيين لازالوا يستعملونها إلى اليوم، ومن هذه الكلمات: (السكر، القطن، عصير الليمون، الرز، نبات الأرضي شوكي).

وكتبت المستشرقة (زيكريد هونكة) كتاباً سمته: "شمس العرب تسطع على الغرب" جَعَلَت في ملحقاته ملحقاً كاملاً ضمَّ جداول بعشرات الكلمات الألمانية المهنية المأخوذة من اللغة العربية؛ لأنَّ العرب كانوا يعملون، وكانوا إذا انتقلوا إلى بلد نقلوا أعمالهم وحرفهم المتقدمة إلى تلك البلاد، تقول المؤلفة:

"إن الصناعة الإسلامية في العصور الوسطى كانت موضع فخر الأوربي واعتزازه، فعندما يرى بين يديه سلعة كتب عليها: إنها من صنع دمشق أو بغداد أو القاهرة أو قرطبة..، تراه يفاخر بها مَن حوله، لأنها صناعة عربية".

أيها الإخوة:

لحظت تأخر بَدءِ الشبابِ الملتحق بالجامعات بالعمل، إذ يتخرج الطالب في الجامعة وله ثلاث وعشرون عاماً أو أكثر، ليبدأ العمل بعدها، ولئن عاش سبعين سنة فإن قريباً من ثلث عمره مضى بلا عمل، لذلك أتمنى على طلاب الجامعات أن يبحثوا عن أعمالٍ عمليةٍ مع دراستهم، لكيلا يتأخروا عن الفاعلية والإنتاج والعمل، ما لم تستغرق الدراسة ساعاتهم وأيامَهم طيلةَ العام.

أجرى رجل أعمال مسلم في بلد عربي تجربة عملية، قال: إنه لاحظ أن الله تعالى يكلِّف الغلام إذا بلغ من العمر (14) سنة، فابن الرابعة عشرة وبنتها يعاملان عند الله معاملة الرجل ذي الخمسين سنة من حيث التكليف، فلماذا نؤخِّر نحن عملهما إلى سن الخامسة والعشرين؟!

فصمم مدرسة يتخرج فيها الطالب في عمر الخامسة عشرة، خرج فيها أطباء ومهندسين وحقوقيين لهم من العمر خمس عشرة أو ست عشرة سنة، والتقى البحث مع خريجين من هؤلاء مَضَت عليهم أيام في العمل وصار بعضهم رئيس مشفى، صار آخر مستشاراً في بعض الوزارات.

هذا من جهة تأخر بدءِ العمل، أما من جهة انتهائه فيتقاعد بعض رجالنا في الستين أو الخامسة والستين، ولعل لدى بعضهم خبراتٍ تبني بلداً، فلماذا التوقف عن العمل؟ وربنا يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

فمن لم يعمل بجهده العضلي لضعف جسده، فليقدم خبراته للشباب.

أيها الإخوة:

العمل قيمة إنسانية عليا، تشكل هوية الفرد والمجتمع، وهو وسيلة لكسب الرزق الحلال من جهة وعنصر رئيس في بناء الحضارات وتقدم الأمم من جهة أخرى، قال الحسن البصري: "ما من يوم ينشق فجره إلَّا نادى منادٍ من قبل الحقِّ: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديدٌ، وعلى عملك شهيدٌ، فتزود منِّي بعمل صالح، فإنِّي لا أعود إلى يوم القيامة".

والحمد لله رب العالمين